العمارة الدينية

العمارة الحربية

العمارة المدنية

العمارة في بلاد المغرب

إنّ المدينة بالمغرب تعتبر كغيرها من المدن العربية الإسلامية حيث أنّها تميّزت هي أيضا بمنشأتها العمرانية واحتوت على مرافق عَملت لتطويرها حضاريا أي كلما تنوّعت هذه المرافق زاد معها الرقيّ وازدهرت، إذ تهدف هذه المرافق إلى خدمة نواة المجتمع وتلبية حاجيات الأفراد. وسنتطرق في هذا الفصل إلى المنشآت العمرانية التي توجد في المدينة ومنها العمارة الدينية العسكرية الاجتماعيةوالاقتصادية.

المبحث الأوّل: العمارة الدينيّة

1- المساجد:

يعتبر المسجد هو أوّل بناء يؤسس بالمدينة الإسلامية وذلك حسب ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم لإقامة الشعائر الدينية في المسجد، فإنّها بيوت الله ومواضع العبادة المشهورة بالطهارة، ولم تقتصر وظيفة المساجد على الصلاة فقط بل كانت مركزا للحكم والإدارة والدعوة والشورى[1]،كما كان أيضا محل للقضاء واقتناء العلم وغير ذلك من أمور الدين. ومن جانب آخر تميّزت العمائر الدينية عامة وعمارة المساجد خاصة في تخطيطها بالطراز العربي التقليدي وهو أهم طرز عمارة المساجد في دار الإسلام حيث انتشر في غالبية الأقطار الإسلامية[2].

- **مسجد القيروان**:وهو أوّل مسجد تم بنائه في بلاد المغرب (ينظر ملحق رقم 01) الذي أسسه عقبة ابن نافع ﷺ سنة 55 هـ / 675 م[3]، وذلك عند تخطيطه للقيروان، حيث كان المسجد يتوسط المدينة وتحيط به الأسواق إذ يقول البكري: "كان سماط السوق القيروان قبل نقلها إلى منصورية متصلا من القبلة إلى الجوف، وطوله من باب أبي الربيع إلى الجامع ميلان غير ثلث ومن

الجامع إلى باب تونس ثلثا ميل وكان سطحا متصلا فيه جميع المتاجر والصناعات"[1]. وهذا ما أكده أيضا المقدسي:"الجامع بموضع يسمى السماط الكبير، وسط الأسواق في سرة البلد أكبر من جامع ابن طيلون بأعمدة من الرخام[2]"[3].

فلقد كان هذا المسجد كثير الاهتمام من طرف الولاة والأمراء حيث بذل الكثير منهم جهودا كبيرة في تحسينه إذ طرأ على المسجد العديد من التغيرات كما يذكر البكري: "أنه بناه عقبة ابن نافع ثم هدمه حسان[4]حاشى المحراب[5] وبناه"[6]. وكان ذلك سنة 78 هـ – 83 هـ/ 693 م – 697 م، ولم يلبث المسجد الجديد إلى أن ضاق بالمصليين كان زمن خلافة هاشم بن عبد الملك[7] حيث قام ببناء ماجلا ومئذنة (ينظر ملحق رقم 02)، ولما وليّ يزيد ابن حاتم[8] على إفريقيا 155 هـ / 772م[9] حسب ما ذكر البكري: "هدم الجامع كلّه حاشى المحراب وبناه واشترى العمود الأخضر بمال عريض

جزل ووضعه فيه"[1]. ولما وليّ زيادة ابن الإبراهيم[2] 221 هـ / 832 م هدم الجامع كله وأراد هدم المحراب فقيل له أنّ من كان قبلك سبقا من الولاة تورعوا عن هدمه فكيف لك أن تهدمه والذي وضعه عقبة ابن نافع، كانت إرادته أنلا يبقي أثرا لغيره في المسجد. كما زاد من إصلاحات في المسجد القيروان ذات أهمية حيث زاد من سعة المحراب وزينه بالرخام الأبيض وبنائه للقبة[3] المجيبة الباهرة[4]، وإننا نرى فيما يذكره البكري بعضا من المبالغة حيث أنه يتكرر لقوله هدم الجامع في وصفه وهو مع هذا يشهد بأن مئذنة المسجد مازالت باقية حيث عند ذكره لهدم الجامع كان يقصد مكان الصلاة أي بيت الصلاة أو يعني أيضا تعبيرا لإصلاح وإعادة البناء.

وبالتالي أن مسجد القيروان اتخذ شكله النهائيفي زمن الأمير إبراهيم ابن أحمد ابن الأغلب[5] سنة 261 هـ/ 875 م إذ زاد في طول البلاطات الجامع وبنى القبة المعروفة بباب البهو[6].[7] إذ يذكر النويري: "أن هذه الزيادات ترجع إلى عهد آل إبراهيم أحمد ابن مُحَّد ولي الحكم في سنة 242 هـ

856/ م"[1] ولكننا نعتقد أن النويري أخلط أعمال عهد الامير بأعمال ولده إبراهيم الذي وليّ الحكم بعده بعشرين عاما فقد نسبه إلى أبيه فنحن نرجح القول الصحيح إلى البكري الذي يُعتبر أقرب من النويري في هذه الحوادث. والظاهر أن لهذا المسجد لم تطرأ تغيرات كثيرة بعد نهاية العصر الأغلبي إذ نجد أن الفاطميين لم يدخلوا إصلاحا أو تغييرا جديدا على المسجد، وقد يكون الصنهاجيون قد أضافوا إلى مجنبات الصحن[2] واجهتها تحمل نقوشا ترجع إليهم، وفي الأخير نرى أن هذه الإصلاحات لم تؤثر على مسجد القيروان القديم، ونرى أن نظامه اليوم يطابق ما اختطّه عقبة ابن نافع[3].

جامع الزيتونة: إن جامع الزيتونة يعتبر من أكبر المساجد في إفريقيةُ والمغرببعد مسجد القيروان، فقد نسبه المؤرخون إلى حسّان ابن نعمان في حين أتّمه عبَيد الله الحبحاب[4] سنة 141 هـ / 764 م[5]. هذا ما أكده المراكشي إذ يقول: "وهو المولى بني سلول، وكان رئيسا... وهو الذي بنا المسجد الجامع"[6].

أما تسميته فكان أصلها في البداية بجامع تونس فقط، وهذا ما وجدناه عند معظم المؤرخين حيث لم يشتهر جامع الزيتونة بهذا الاسم في القرون الأولى بل كان هذا الاسم شائع في أوائل القرن

السابع العصر الحفصي[1]، وجاءت تسمية الزيتونة في رحلة العبدري، وكان ذلك سنة 688 هـ /1289 م حين تكلم عن حنايا المجلوبة إلى ساقية[2] جامع الزيتونة[3]. وقيل أيضا سميّة بالزيتونة لتكون نورا يضاء بها إفريقيا، في حين هناك روايات تذكر أنّهم وجدوا زيتونة منفردة في موقع الجامع وبهذا سميّ بجامع الزيتونة[4]. وليس هذا ما نحن بصدده ولا يزداد شأنا عن هندسته التي هي صلب المذكرة.

فأما هندسة الجامع كانت كباقي المساجد بها سراري المرمر الملون المقام عليها أقواس بيت الصلاة، أما أبوابها من عود الصندل[5]، حيث مر المسجد بإصلاحات عديدة منها في عهد زيادة الله ابن الأغلب الذي بنا أبنية ضخمة كما أقام أيضا في سنة 255 هـ بالنقش على قبة المحراب، أما في عهدي الفاطمي لم يغيروا فيه الكثير حيث قاموا بإنشاء مئذنة والقبة البديعة فوق البهو والرواق[6] الموجود أمام واجهة الصلاة، أما في عهد الحفصي فقد أمر السلطان زكرياء الحفصي[7] بإقامة عوارض وأبواب من خشب لبيت الصلاة وكان ذلك سنة 716 هـ /1316 م ووضع الرخام وكتب عليه اسمه، أما السقوف الجامع فهو على شكل سطح موجود في القسم الخارجي للجامع ومغطى من الداخل بسقيفة[8] خشبية ذات عوارض ظاهرة.[9]

– **جامع سوسة الكبير**:مسجد سوسة الكبير (ينظر ملحق رقم 03) قام بإنشائه أبو العباس محمّد ابن الأغلب وذلك سنة 236 هـ / 850 م[1] ويقع هذا المسجد في جزيرة بالقرب من باب البحر البحر في الركن الشمالي من مدينة سوسة، ويتكون والجامع على شكل مستطيل ويتوسطها صحن تحيط به أربع ظلات من العقود على شكل حذوة فرس مستديرة، ويتوسط المحراب جدار القبلة وتزخرفهكتابة منفذة بالخط الكوفي على الطراز الفاطمي مما يدلّ على أن هذا الجزء قد أضيف لاحقا. وقد أمر الأمير الأغلبي ببنائه بعد ما تبّين له أن مسجد فتاتة لم يعد قادرا على استيعاب كلّ المصلين الذين تضاعفت أعدادهم[2].

–**مسجد المهدية**:شيّده الخليفة الفاطمي المهدي[3] سنة 303 هـ – 305 هـ/915 م – 917 م[4](ينظر ملحق رقم 04) وهو أيضا له شخصية مستقلة وطابع خاص، وأهم ما تميّز به المدخل التذكاري البارز الذي يظهر أوّل مرة في العمارة الإسلامية عامةً[5]. والمسجد على شكل مستطيل وبين البرجين يوجد مدخل الذي به فتحة معقودة بعقد مستقيم يعلوه عقد[6] قوسي عاتق يؤدي إلى الصحن ومنه إلى بيت الصلاة، ومن الملاحظ لا توجد فيه قبة البهو، فهو يشتمل على ثلاثة حصون واحد في الوسط رئيسي وصحنان على جانب البلاطات[7].

أما المغرب الأوسط فمدنه تميزت هي أيضاً بمجموعة من المساجد وذلك راجع إلى أهم الدويلات التي قامت بالمطقة، ومن أبرز المساجد سنذكرها كالتالي:

-**المسجد الأعظم ببجاية**:بناه الأمير الحمادي المنصور[1] وذلك سنة 494 هـ / 1100 م في بداية الأمر كان قصرا يطلق عليه اسم "اللؤلؤة" ثم بعد ذلك حوّله إلى مسجد، وكان طول المسجد 220 ذراع وعرضه 150 ذراع وله واجهة مزيّنة بـ 17 عقد وباب كبير على يمينه وعلى يساره ألواح رخامية مزينة بكتابات، وداخل المسجد ن-جد 32 سارية من الرخام وقبة عظيمة وأرض مفروشة وجدرانه مغطاة بالزليج، وكان ارتفاع مئذنة المسجد حوالي 60 ذراع وكان لهذه المدينة بابان من جهة الشرق وآخر من جهة الجنوب، وكان المحراب يحيط به الرخام الأبيض وعليه نقوشات من الآيات القرآن الكريم، وفي مقدمة هذا المسجد نجد المقصورى بابها قرب المبر[2].

-**المسجد الأعظم بالجزائر**:والذي أسسه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين[3] سنة 460 هـ / / 1068 م كما يقول الزياني بأنه يوسف ابن تاشفين أعوام الستين وأربعة مائة للهجرة كما نجد البكري يقول: "مدينة الجزائر ولها أسواق ومسجد الجامع"[4]. ويُذكر أن مسجد الجامع شكله وهندسة وهندسة بنائه مماثلة وكثيرة الشبه لمسجد تلمسان[5] حيث كان بيت الصلاة في هذا المسجد يحتوي

على 11 بلاطة عمودية على جدار القبلة تخترقها خمسة أساكيب عرضية(ينظر ملحق رقم 05)، كما يحيط أيضا بالصحن 3 مجنبات شرقية وغربية تحتوي كلٌ منها على 3 أروقة تمتد حتى بيت الصلاة، أما الشمالية فإنها تظم إلى رواقا واحدا، أما عقود المسجد هي عمودية على جدار القبلة من النوع المنفوخ المنكسر.وترتكز هذه العقود كما هو موجود في جامع تلمسان على الدعائم بعضها مستطيل الشكل وآخر مصلب الشكل[1].

-مسجد الكبير بتلمسان:وهو أيضا يعتبر من المنشآت المرابطين حيث شيده يوسف ابن تاشفين سنة 1475 هـ / 1082 مفي مدينة تارجرات التي عرفت فيما بعد بمدينة تلمسان ونسب الجامع إليها إذ يقول البكري على مدينة تلمسان: "... ولها أسواق ومساجد ومسجد الجامع"[2].وكانت هندسته المعمارية في غاية الجمال ودقة الإتقان، ورأى بعض المؤرخين أن البنية المعمارية لمسجد تلمسان فيها لمساس أندلسية وفنون معمارية قرطبية، بل يرى بعضهم أنهم قلدوا جامع قرطبة تقليدا مباشرا وذلك في لوحتي الرخام التين تكسوان واجهة المحراب (ينظر ملحق رقم 06)، وكذلك سقف[3] المسجد الخشبي شبيه بسطح مسجد قرطبة وكذلك البلاط أيضا، وقد مر هذا المسجد في بنائه بعدة مراحل: الأولى عند بنائه أيلام يوسف ابن تاشفين سنة 475 هـ/ 1082 م، والثانية سنة 530 هـ / 1135 م عندما رممه علي ابن تاشفين[4] وزينه بالزخارف الرائعة والذي يزيدان بها لاسيما في وجه المحراب وجداره والبلاط الوسطى، أما الثالثة كان في عهد يغمراسن ابن زيان[5].

وكان المسجد يتكون من مساحة مستطيلة غير منتظمة الأبعاد، وهو ينقسم إلى صحن تحيط به 4 ضالات أكبرها ضلة القبلة أما بيت الصلاة كان يتكون من 6 أساكيب و13 بلاط عمودية على اتجاه جدار القبلة وبداخل بيت الصلاة نوعان منم العقود ومنها عقود متعددة القصوص وأخرى منفوخة شبيهة بحذوة الفرس، ويتوسط بيت الصلاة بلاط محوري أوسع من بقية البلاطات تقوم عليه قبتان احداهما فوق أسطوانة المحراب وأخرى شمالا، وسقوف المسجد هياكل تكسوها قراميد الفخار المزلج[1].

فبعد ما تكلمنا عن المغرب الأوسط فها نحن الآن نتطرق للحديث عن المغرب الأقصى هو أيضا عرف عددا كبيرا من المساجد وذلك منذ عهد الأدارسة الذين كان لهم اهتماما وهمّة عالية بالجانب العمراني وخاصة الدينية إضافةً إلى ما أضافه المرابطين والموحدين وذلك عن طريق الطابعِ الأندلسي الذي زاد من جمالية وتطوير العمارة الدينية، ومن خلال هذا سنذكر أهم المساجد التي أُنشأت في المغرب الأقصى ومنها:

-جامع القرويين في فاس:جامع القرويين (ينظر ملحق رقم 07) يقع في مدينة فاس وبالتحديد في عدوة القرويين ولذلك نسب إليهم وأُخذ في بنائه يوم السبت مهل شهر رمضان المعظم من عام خمسة وأربعين ومائتين[2]. ويعود تأسيس الجامع إلى فاطمة الفهري التي اشترت الأرض لبناء المسجد سنة 245 هـ / 895 م كما يتكون المسجد من ضلة القبلة، تنقسم إلى 4 أساكيب في جدار القبلة، بينها 4 بوائك[3] من عقود، وتتكون كلٌ منها من 12 عقدا، ويوجد بلاط أوسط في الجهة الغربية به 5 عقود وفي الجهة الشرقية من 6 عقود، ومحرابه موضع الثرايا وصومعته في موضع قبة

العنزة[1].وتعرض المسجد للتعديل والزيادة خلال عصر الزناتي وذلك على يد الأمير أحمد ابن أبي بكر الزناتي سنة 345 هـ / 956 م فكان التعديل في بيت الصلاة وكذلك في إقامة صومعة جديدة،والزيادةفكانت إضافته لـ 3 أساكيب في الصحن ليصبحوا بـ 7 أساكيب[2].أما المرابطين فقد فقاموا بإجراء زيادات فقط وذلك في عهد الأمير يوسف ابن تاشفين 528 هـ / 1133 م إذ تم توسيعه وأضيف منبر من خشب الصندل وأضيفت أيضا عنزة حيث توجد عليها كتابة إلى انها عُملت في سنة 525 هـ / 1129 م[3]، أما في عهد علي ابن يوسف صارت البلاطات بيت الصلاة 10 بعدما كانت 7، وأعيد بناء أبواب الجامع بالنحاس[4].أما عهد الموحدين قاموا بتغطية المحراب بطبقة من الكاغد والجص، حيث انهم لم يغيّروا تخطيط المسجد بل أضافوا إليه بعض الوحدات المعمارية والزخرفية ومن أعمالهم أيضا قبة الجبس[5] بالباب الغربي وهي القبة المقربسة الصناعة تم إنجازها 617هـ / 1220م وأنشأت البيلة وهي صهريجا[6] من الرخام مستطيل على الأرض، والخصة ودار الوضوء[7].

ونستخلص من كل ما مر معنا من خلال عمارة المساجد بالمدن المغربية فإن مساجد المغرب عُرفت بمكانتها ورَمزيتهَا حيث ساهمت في ثَراء حضارة بلاد المغرب، فكانت المساجد خير حافظ للطراز الهندسي والشكل المعماري والجمالي لفن العمارة، إضافةً إلى أن ما يميز المساجد في بلاد المغرب هو هندستها، وما اشتملت عليه من أنماط زخرفية، وأسلوب تقليدي في بناء القباب، والصومعات والمآذن، وتزيينها بالزخرفة الأندلسية الأخَاذَّة، إضافة إلى ضخامتها وتناسقها وجمال الشرفات وكل ما يحيط بها. وأن عمارة المساجد ببلاد المغرب شهدت عدة مراحل من التطور بين الاقتباس والإبداع، فرغم تأثير الطابع المعماري الأندلسي على المساجد إلاّ أن نجد بعض المساجد احتفظت بطابعها المحلي، فكان ظهور نمط معماري جديد مغربي أندلسي.

2- الربط:

تعوذ المجتمع الإسلامي في حياته على الجهاد وذلك لتطبيق ما أمر به الله ورسوله الأمين وذلك ما رسخه الشرع من الكتاب والسنة الشريفة من أدلة ونصوص، حيث نجد هذه الصفة زادت منذ الفتحات الإسلامية وعليه نرى بعض المدن تحوّلت إلى رُبط للمجاهدين والعُباد والزاهدين.

فإن الرباط يجمع على الربط والرِباطة والأربطة والرباطات أخذها المسلمون من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[1]، والرباط هو الإقامة على الثغور لجهاد العدو بالحرب ورباط الخيل أي الحصن أو المكان الذي يرابط فيه الجند وكثيرا ما يكون قلعة أو سور[2] كما أنه يعتبر خط الدفاع الأوّل، فرباط الخيل هي تسمية جاءت من قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ**﴾[3]. وكما جاء في السنة عن سلمان الفارسي ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**رباطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ وَإِنَّمَا تَجَرَى عَلَيْهِ**

عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ»[1]. أما المرابط تعني العابد والزاهد الذي انقطع عن الدنيا وبقي مرابط في الثغور وذلك قصد الجهاد للدفاع عن المسلمين وحماية ديارهم الآمنة من هجمات الأعداء[2]. وبالتالي فإن الربط هي الأماكن المخصص لإقامة الجند من أجل الجهاد وتكون هذه الربط في المناطق الساحلية خاصة، والتي كانت لها وظائف كثيرة ومتنوعة حيث كانت أماكن لوجود المجاهدين والزهاد وأيضا مكان لأسرى المسلمين، وهذا الدور الذي لعبته الربط وخاصة في بداية الفتحات إذ كان لها بعد عسكري أكثر ومع قلة الفتحات فقدت دورها العسكري وأصبحت أماكن لإيواء المتصوفة والزهاد قصد التعبد[3].

وقد شهدت بلاد المغرب مجموعة من الربط في مختلف مدنها وعليه سنذكر أهم هذه الربط بداية من المغرب الأدنى:

-**رباط المنستير**:يعتبر رباط المنستير أوّل رباط في بلاد المغرب (ينظر ملحق رقم 10) والذي بناه هرثمة بن أعين[4] حيث كان واليا على إفريقية سنة 179 هـ / 795 م إذ بنى القصر الكبير المعروف بالمنستير، وكان ذلك سنة 180 هـ / 796 م[5]. ويقول ابن حوقل: "...وبين المهدية وسوسة رباط يسكنه امّة من الناس على مرّ الأيام والساعات، يعرف المنستير وقصده أهل إفريقية لوقت من سنة فيُقِمون به أياما معلومة"[6].

وهو بناية مربعة الشكل وأنشأت في جهاته الغربية والشمالية والجنوبية أبراج مستديرة للاكتشاف، أما من الناحية الشرقية بني فيه مرصد على شكل منار شاهق[1]. وفي المحور الجنوبي مدخل قائم الزوايا يؤدي إلى ساحة الرباط، وتحيط بها مجموعة من الحجرات القائمة على جدران القصر الأربعة إذ يقول البكري: "وبالمنستير البيوت والحجر والطواحين الفارسية والمواجل الماء، وهو حصن عالٍ متقن العمل"[2]. أما الطابق العلوي يوجد فيه المسجد ومحرابه يقع فوق المدخل مباشرة ويتألف من 7 أروقة مسقوفة، أما باقي الطابق يحتوي على غُرف والتي توجد في الطابق الأرضي، وكما يوجد بئر في فناء الرابط، وأقيم في الظلع الجنوبي الجنوبي الغربي رُبط للنساء وُجد على محراب مسجده كتابة مؤرخة في رمضان سنة 256 هـ / 870 م؛ ومما سبق فإن تصميم المنستير له أثر في عمارة الأربطة التي أنشأت في عصر الأغالبة 184 هـ – 296 هـ / 800 م – 908 م[3].

–رباط سوسة:وهذا الرباط أسس في عهد الأمير الأغلبي زيادة الله ابن إبراهيم ابن الأغلب سنة 206 هـ / 821 م (ينظر ملحق رقم 09) على ايدي مولاه مسرور خادم، ويطلق عليه بقصر الرباط إذ يقع شمال مدينة سوسة[4]، فإنه بناء مربع محصّن يحتوي على 8 أبراجمنها واحد في منتصف كل جانب وواحد آخر في كل ركن والأبراج كلّها نصف دائرية ما عدا برجي المدخل والركن الجنوبي الشرقي، وكلها مبنية من حجارة تمتاز بالصلابة أما الجدران كانت مرتفعة عن سطح الأرض[5].

ويتألف الرباط من فناء يحيط به طابقان، ويشتمل الطابق الأرضي على أروقة وراءها حجرات مسقوفة بأقبية منها نصف أسطواني وأخرى متقاطعة ويبلغ عددها 33 حجرة التي تلتف حولها جدران الرباط

وتتعامد عليها ويغطي كلّ حجرة قبو[1] نصف أسطواني[2]. أما الطابق العول يتكون من ممر يطل على الصحن ويحتوي على حجرات مماثلة للطابق الأرضي، أما الجهة الجنوبية يقع فيها المسجد الذي به 11 بلاطة متعامدة على جدار القبلة، وبها 10 صفوف من الأعمدة وكل صف به قوسان قائمان عموديا عليها، حيث يعتبر تصميم رباط سوسة له نفس نظام مسجد بو فتاتة. ويعلو منار المسجد برج صغير مربع إذ يستخدم لإعطاء الإشارات[3]. ويوجد كتابة كوفية على سطح الشرفة تقول أن: "هذا هو أحد الأبنية التي شيدها زيادة الله الأغلب ابن إبراهيم في عام 206 هـ / 821–822م"[4]. ويتضح لنا من خلال سبق أن رباط سوسة اشتمل على كثير من الدفاعية المتمثلة في الأسوار السميكة وعدد من الأبراج ومدخل وحيد يخلو من النوافذ حتى لا تكون هناك فتَحات عديدة، أما الربط في المغرب الأوسط كان هناك العديد منها إلاّ أنها اندثرت ولم يبقى لها أثر ومن أهم الربط التي كانت منتشرة في هذه المنطقة نجد رباط أرزيو إذ يقول البكري: "وبغرب مدينة أرزوا جبل كبير فيه قلاع ثلاثة مسورة رباط يقصد إليه"[5]كما كان رباط بمدينة شرشال فيذكر البكري: "...وكانت بمدينة شرشال مبنى ارتدم فيها رباطات يجمع إليها في كل عام خلف كثير"[6]، أي من خلال ما ذكره البكري نجد أن هذا الرباط كان يأتيه الناس وذلك قصد التزهد والدفاع عن المسلمين، أما المغرب الأقصى فقلد كان هناك رباط تازة شيده عبد المؤمن بن علي سنة 527 هـ / 1131 هـ في هذ المدينة، وبني هذا الرباط على قاعدة من الحجر تمتد من أمامه أسوار وبرج مثمن الشكل فوق

قاعدة نصف كروية قائمة على البحر، وكان له ثلاثة أبواب بابان في المقدمة وأما الثالث كان ملويا[1]، ويرجع نسب هذا الرباط إلى عبد الله بن يسين[2].

ومن خلال دراستنا للربط في بلاد المغرب يبدو لنا أن هذه الربط اتخذت نمطا وتصميما واحدا في بنائها وتشييدها، وذلك لتأثرها بالربط الأولى التي أنشأت في إفريقية كرباط سوسة والمنستير، وكانت عبارة عن حصون مربعة الشكل وتحتوي على طابقين وبها أيضا غرفا وحجرات للمرابطين، وكما يوجد فيها أيضا أبراج على كلّ زاوية من أجل المراقبة والحراسة، إذ نجد كل الرباطات اتخذت أغلبها تصميم واحد مما نجدها متشابهة من رباط لآخر.

العمارة الحربية:

لقد أثرت عوامل مختلفة التي كانت وراء قيام العامل الحربي الذي يُعتبر من أهم عناصر المدينة وذلك من أجل تحصينها وحمايتها والدفاع عنها، وهنا نجد بعض المدن الإسلامية قد أحيطت بأسوار عالية ومنها ما اشتملت بسورين أو ثلاثة وكانت تزود هذه الأسوار بأبراج وقلاع، إضافة إلى هذا كان يحيط حولها خنادق حسب تموقع كل مدينة[1].

أ- الأسوار:

وهو من البناء والسور عند العرب حائط المدينة، وهو أشرف الحيطان[2] ولقوله جلا وعلا: ﴿**فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةَ**﴾[3]، والسور يعتبر من أهم المنشآت الحربية التي تميّزت بها المدن الإسلامية فهو يقوم أساسا على تنظيم عراقيل للمهاجمين أي العدو والوقاية منهم، فإن السور يعتبر خط دفاعي أوّل وخاصة في فترت الفتحات الإسلامية[4].

سور القيروان: ومن خلال هذا سندرس أهم الأسوار التي أنشأت في بلاد المغرب والتي أحيطت بمختلف مدنها وذلك بداية بالمغرب الأدنى، فنذكر أولها مدينة القيروان التي اختطها عقبة ابن نافع ﷺ والتي كان لهذه المدينة سورا فلقد تحدث البكري عن هذا وبيّنا لنا سور المدينة وما يحتويه إذ يقول: "كان للقيروان في القديم سور طوب[5] سعته عشرة أذرع بناه مُحَّد ابن الأشعث سنة أربعة وأربعين ومائة"[6]، كما نجد أن هذا السور بني ثم هدم على يد زيادة الله ابن إبراهيم سنة تسعة ومائتين

ثم بناه المعز ابن بديس ابن منصور الصنهاجي[1] وذلك سنة أربعة وأربعين وأربعمائة حيث نجد هذا السور له جداران يتصلان بمدينة الصبرة[2].

سور سوسة: بالنسبة لمدينة سوسة الياقوت وهي مدينة قد أحاط بها البحر من ثلاثة نواحي، من الشمال والجنوب والشرق، سورها صخر حصين منيع يضرب فيه البحر[3]، حيث هي على منطقة استراتيجية فموقعها محصن طبيعيا، نجد أن زيادة الله ابن إبراهيم الأغلب بنى سورها وكان يقول: "ما أبالي ما قَدِمتُ عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات بنياي مسجد الجامع بالقيروان وبنياي قنطرة الربيع وبنياي حصن مدينة سوسة وتوليتي أحمد أحمَد ابن أبي محرز قضاء إفريقية"[4].

ومدينة سوسة هي مدينة كبيرة على سطح الجبل عالي وعليها سور خشن فإن إبراهيم أحمد ابن الأغلب هو الذي جدد سورها وألحقها بالمدن وكان تجديده لسورها سنة تسعة وأربعمائة[5].

سور تونس: أما تونس فهي تحتوي أيضا على سور يدورها ويحيط بها أربعة وعشرون دراع وكان تشييده على يد الشيخ سيدي محرز وتم تجديده بعد ذلك في سنة 316 هـ[6] وكما يذكر القلقشندي على أنها في وطأة من الأرض في سفح جبل يعرف بأم عمرو، يستدير بها خندق وسور حصين ولها ثلاثة أرباض كبيرة في جهتها[7]، وهي مدينة قديمة البناء ويوجد بها سور عظيم يدور حولها حفير يقال أن دورها 24 ألف ذراع[8].

والسور هو بناء يكون عال على سطح الأرض يحيط بالمدينة كلّها خاصة في المدن التي تبنى في الوديان والسهول والأراضي المنخفضة، أما التي يحيط بها جزئيا بالمدن هي التي تبنى على المناطق المرتفعة والجبلية فإن هذه الأسوار تبنى غالبا من ثلاثة مواد وهي الأحجار الخاصة في المدن الجبلية، أو الطين أو الأجر المحروقة خـــــاصة في مدن السهول والسواحل[1]، كسور المهدية (ينظر الملحق رقم 11) فهو يحيط بالمدينة ومبني من الحجارة ويحتوي على 16 برجا منها 8 في السور الأوّل و8 في الزيادة منها برج أبي الوزان النحوي وبرج عثمان وبرج عيسى وبرج الدهان، حيث أن هذه المدينة اختطها المهدي سنة 300 هـ / 913 م وأكمل سورها سنة 305 هـ / 918 م[2].

ومرورا بمدن المغرب الأوسط لم يتردد مؤسسو مدنها في الاستفادة من الأسوار والتي سنذكر أبرزها التي كانت موجودة آنذاك كسور أشير وهو سور حصين بناه بلجين يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي[3] سنة 367 هـ[4].

ومن المدن التي تميزت بسورين نذكر منها سور المسيلة حيث يدور أحدهما عن الآخر فهو سور حصين من طوب وبينهما ماء يحيط بالمدينة[5]، وسور تلمسان فهو من الحجارة وخلفه سور آخر من الحجارة أيضا وهو محصن ومتقن[6].

إن موقع تأسيس المدن يلعب دور كبير في بناء الأسوار كالتي بنيت على الجبال فنجدها بنيت بالأحجار كسور مدينة شرشال وهو يمتاز بالطول الشاهق بأحجار منحوتة ويبلغ حوالي 8

أميال[1]،كذلك سور بجاية فهو مبني على جبل طولا وعرضا[2]، ومن الأسوار التي بنيت أيضا بالحجارة سور تيهرت[3]وهذا ما أكده صاحب الاستبصار: "مدينة تيهرت وهي مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور صخر"[4].

ولقد لعبت الأسوار دورها في حماية المدن وخاصة في فترة انتقال بين المرابطين والموحدين حيث حرص المرابطون على بناء الأسوار كما نجدهم قد وضعوا لمستهم في تشييد الأسوار بهمة عالية وذلك رغم تأخرهم في إنشائها في مدن المغرب الأوسط كأسوار مدينة وهران، أما سور مراكش والذي بناه علي بن يوسف وأداره على المدينة سنة 526 هـ / 1131 م، وكانت مدة بنائه 8 أشهر[5]مما يدلنا على همتهم العالية وكان إنفاق على السور 70 ألف دينار،وكان بناء هذا السور إشارة من الفقيه[6] أبي الوليد مُحَمَّد ابن رشد[7].وفي رواية أخرى أنه أنفق على بنائه 60 ألف دينار[8].

أما سور فاس كان بين عدوّة القرويين والأندلسيين يفصل بينهما ثم عندما جاء المرابطين هدموا هذا السور وجعلوها مدينة واحدة ثم بنا علي ابن يوسف سور القوارجة[1]. أما الموحدين كان لهم دور في بناء وتشييد الأسوار على بعض المدن وذلك سنة 601 هـ / 1204 م، بأمر من أمير المؤمنين ناصر الموحدي[2] ومن بينهم سور مدينة يادس وسور مزمنة وسور مليلة[3].

2- الحصون والقلاع:

الحصون بالكسر هو كلّ موضع حصين لا يوصل إلى جوفه[4].

عملت الظروف إلى الضرورة الدفاعية من أجل توفير الحماية بالمجتمع في بلاد المغرب مما أدى إلى ظهور العديد من الحصون والقلاع التي انتشرت في مختلف المدن التي عرفتها بلاد المغرب ومنها حصن مثلث الزوايا في المغرب الأدنى الذي شيده عبد المؤمن في منطقة عالية وذات أبراج مرتفعة[5].

كما نجد مدينة تيهرت التي التجأ الرستميين إلى تحصينها كحصن لواتة[1] الذي يقع على نهر منية، كما ذكر اليعقوبي وجود عددا من الحصون بهذه المدينة مثل إسكادال[2] وتسلونت[3]،

كان هناك أيضا حصن تالغمنت[4] خارج المدينة حيث كانت الحاجة ملحة إليه أثناء الفتن[5].

كما يوجد صحن في مدينة تنس على البحر إذ يذكر أهل الأندلس كان قديم معمور ويقول البكري: "أن أهل تنس تعاونوا على البنيان واتخذوا الحصن الذي فيه اليوم"[6].

ولأهمية الموقع واستراتجيته فيعرض بعض المدن للصراع والاستيلاء عليها فإنها تدعي إلى إنشاء الحصون للدفاع عليها ونجد حصن تاونت وهو حصن منيع في الجبل قد أحاط به البحر من ثلاثة جهات[7]، أما حصن تلمسان الذي يقع على جبلها المسمى الصخرتين وهذا الحصن بناه المصمودي قبل أخذه لتلمسان،[8]كما هناك حصون عديدة تابعة لتلمسان وأشهرها حصن هنين وحصن وهران[9].

كما اهتم أيضا المرابطين بإنشاء الحصون ومنها حصن تاكرارت[1] بمدينة مكناس وحصن أمركو أمركو على وادي ورغة وقصبة النصراني عند جبل زرهون وإضافة على هذا أيضا بنوا حصن تاسغيموت عن الأطلس الكبير وتميزت هذه الحصون بالصلابة حيث بنيت من الحجر والطوب معا،[2] معا،[2] وكانت تتميز بالارتفاع والشهاقة كحصن أودغشت، أما الموحدين أنشأوا هم أيضا ورمموا الآخرين حيث شيدوا حصن تاقرا حيث أمر الأمير عبد المؤمن بنائه وذلك من أجل تحصين المدينة كان سنة 540 هـ /1146 م[3].

وحصن تيمال الذي يعتبر الحصن الذي لجأ إليه ابن تومرت[4] لنشر دعوته ووصفه صاحب الحلل الموشية: "بأنه لا يدخله فارسا إلاّ من شرقه أو غربه"[5].إضافة إلى حصن قصبة المهدي الذي بناه أيضا عبد المؤمن سنة 545 هـ / 1150م، عند مصب واد أبي الرقراق[6].

ولم تكن الحصون هي الوحيدة في عملية الدفاع وحماية المدينة بل كان بجانبها وجود القلاع التي لعبت هي أيضا دورا هاما في عملية المراقبة والترصد، وكانت تشيد من الحجارة والطوب وهي نصف دائرية، ومن اهم القلاع نجد قلعت بني حماد وهي قلعة عظيمة على جبل يسمى تاقربوست تشبه في التحصين إلى القلعة أنطاكية وهي قاعدة من ملك بني حماد ابن يوسف الملقب بلكين بن زيري ابن مناد الصنهاجي وهو أوّل من احدثه في حدود سنة 370 هـ حيث اختطها من أجل

التحصين والامتناع[1]، وهناك أيضا قلعة بشر ابن إرطاة وهي توجد بمدينة مجانة ولقد شيدت بالحجر ولها 300 جبا[2].

كما اهتم المرابطين بتشييد القلاع خاصة في المواضع الجبلية وكان لهم سبق في بنائها:

قلعة أمرجوا: بنيت في عهد علي ابن يوسف حيث تشرف هذه القلعة على وادي في ورغة جنوب قلعة بني تاودة، وهي متعددة الأضلاع مستطيلة ويحتوي سورها الخارجي على 12 برج وبها 3 أبواب في خط دفاع أمامي أما الباب الرئيسي له ممر متصل بداخله مباشرة[3].

قلعة تاسغيموت: بنيت بأمر من علي ابن يوسف حوالي سنة 521 هـ / 1127م[4]، حيث حيث قام ببنائها ميمون ابن ياسين وكانت جنوب شرق مراكش، فوق هضبة ذات أجراف وعرة ويصعب الوصول إليها وتحيط بها أسوار على حافة الهضبة، وهذه القلعة لحماية المرابطين، أما باب القلعة الرئيسي معروف بباب الموحدين[5].

قلعة بني تاودا: وهي أيضا شيدها المرابطون وقد بنيت بقطع حجرية ترتبط فيما بينها بلاط شديد الصلابة ولم يتبقى منها إلا أجزاء قليلة على السور[6].

ومن القلاع أيضا قلعة جبل طارق التي أنشأها الموحدين سنة 555 هـ[7]. وقلاع مدينة تيهرت نذكر منها قلعة بن هرب وقلعة مطيلة المعروفة بتيهرت القديمة[8].

3-الأبواب:

بعد إقامة الأسوار والحصون والقلاع وذلك من أجل حماية المدينة ولزيادة تقوية حصانتها الدفاعية لجأ بعض أمراء لوضع وإقامة أبواب على الأسوار، فنجد مختلف المدن في بلاد المغرب احتوت على العديد من الأبواب ومنها مدينة تونس التي كان لها 5 أبواب: باب الجزيرة القبلي ينسب إلى جزيرة شريك ومنه التوجه إلى قيروان، وباب المسمى بالمعشوق، باب قرطجنة، وباب السقايين، وأخيرا باب أرطه[1]. كما نجد سور مدينة سوسة ضمّ 8 أبواب[2]. وبناء الأبواب كانت حصينة كأبواب كأبواب مدينة مهدية التي لها بابان من الحديد إذ يقول صاحب الاستبصار: "لها بابان فيه زينة كل واحد منهم ألف قنطار وطوله 30 شبر وفيه صور الحيوانات"[3]. وهذا ما أكده ابن حوقل إذ قال: "لها سور من الحجارة له بابان ليس لهما فيما رأيته من الأرض شبيه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرافقة وعلى مثالهما عملا ومثل شكلهما اتخذا"[4].

ومدينة القيروان التي كانت كثيرة الأبواب حيث احتوت على 14 بابا منها باب النشبل وباب الحديث وباب الطراز وباب الفلالين حيث نجدها ضمت أبواب تحمل أسماء شخصيات كباب أبي الربيع وباب سحنون الفقيه[5]. ومن الأبواب أيضا باب ميلة وباب القنطرة وهما أبواب لمدينة قسنطينة[6]، كما سمية أبواب نسبة إلى المدن المتجه إليها مثل باب الصفا وباب الأندلس وباب المطاحن وهي أبواب كلها موجودة في مدينة تيهرت الرستمية[7]، ومن الأبواب الحصينة في المغرب

الأوسط نجد أبواب مدينة طبنة[1] باب الخاقان مبني بالحج عليه باب حديد وهو سري، وباب الفتح وهو أيضا عليه باب حديد وبينهما سماط من باب إلى باب، وبها باب تهوذا وباب الجديدوهما أيضا عليهما باب الحديد وخارجها باب الفتح الكبير[2] بناه عنان عمر ابن حفص.

ومن الأبواب أيضا هناك أبواب مدينة تلمسان حيث يوجد بها 5 من الأبواب منها 3 في القبلة وهما باب الحمام وباب وهب وباب الخوجة، أما في الجهة الشرقية باب العقبة، وفي الجهة الغربية باب أبي قرة[3]. إضافة إلى أبواب أرشغون بها باب الفتوح الغربي وباب الأمير قبلي وباب المريسة شرقي[4].

أما المغرب الأقصى فقلد ضمت مدنه العديد من الأبواب على أسوارها وخاصة مدينة فاس التي عرفت بكثرة أبوابها فنجدها احتوت على 13 بابا بين عدوة الأندلس والقرويين،[5] ومنها باب الفتوح وباب الخوخة وباب بني مسافر وباب الجسية وباب يصلتين وباب الشريعة وباب المحروق وباب المطمر وباب الوادي وباب الحديد وباب الزيتون ابن عطية وباب الجيزين[6]. كما ضمت أسوار مراكش مراكش أبواب كباب أغنمات بسورها الذي بني بين سنتي 541– 558 ه / 1147– 1163 م، وباب الرواح بني بسور رباط الفتح وأيضا باب القصبة برباط الفتح المشيد بين 580– 595ه / 1184- 1198م، وهذه الأبواب تميزت بعقود ضخمة أقيمت فيها إذ يبرز التحصين من أجل الدفاع[7].

العمارة المدنية

تعتبر العمارة المدنية هي إحدى أنواع العمارة الإسلامية التي انتشرت بكثرة في بلاد المغرب الإسلامي والتي تشتمل القصور الدور والمساكن والحمامات والفنادق والأسواق ولقد شجع أمراء الدول التي قامت خلال هذه الفترة الحركة المعمارية وأبدعوا فيها وأصبحت مدنا مزدهرة العمران، وخلال هذا المبحث سنتكلم عن أهم هذه المنشآت التي انتشرت.

1- القصور:

يعتبر انشاء القصور تقييم على المستوى الحضاري الكبير للدولة والقائمة التي ما توصلت إليه من ثراء، فهي سكن خاص بالأمراء والطبقة الأولى إذ نجدهم قد تفننوا في بنائها وزخرفتها[1].

وهذا ما نجده في دولة الأغالبة عندما عرفت نهضة في العمران حيث أنشأ هرثمة ابن أعين قصورا للمرابطين والمحاربين على السواحل[2]، إضافة ما أنشأه إبراهيم ابن الأغلب كقصر الرصافة وقصر الأبيض في مدينة العباسة[3]، وهناك قصر الفتح الذي يوجد بمدينة الرقادة بناه إبراهيم ابن أحمد الأغلبي فقال عبيد الله المهدي: "رأيت ثلاثة أشياء في إفريقية لم أرى مثله في المشرق منها هذا القصر ثم قصور أخرى أقل شأن منها قصر الصحن وقصر بغدد وقصر المختار"[4]. ويقول البكري: "إبراهيم ابن أحمد انتقل إليها من القصر القديم وبنا بها قصور عجيبة"[5]، إضافة إلى قصر العروسة كان يحتوي على أربع

طبقات حيث أنفق عليه زيادة الله ابن الأغلب حوالي 232 ألف دينار[1] ويقول الإدريسي وعلى أميال منها قصور الرقادة شاهقة الدار حسنة البناء[2].

كما حظيت مدينة تونس بناء القصور حيث كان يوجد فيها قصر على أعلى الجبل مشرف على البحر إذ يقول البكري: "...وبقبلي البناء قصر مبني بالحجارة متقن البناء وفي الجوف منه حائط صخر كالصور فصار المدخل بالسقف في هذا الميناء، بين حائط القصر وهذا الصور... وهذا القصر يعرف بقصر السلسلة"[3].

أما قرطجنة تميزت بقصور متنوعة منها قصر المعلقة وقصر الطياطر وقصر قومش حيث يقول البكري: "وفيها قصر يعرف بالمعلقة مفرط العظم والعلو، قباء معقودة طبقات كثيرة مطلة على البحر في غربه قصر يعرف بالطياطر، وهور الذي فيه دار الملعب وهو كثير الأبواب وهو أيضا طبقات على كلّ باب صور حيوان رخام وصور جميع الصناع وقصر يقال له قومش"[4]. ومدينة المهدية التي عرفت بكثرة قصورها[5] وباعتبارها مدينة خاصة بالسلطان وجنوده كان يبها قصر حسن البناء وعجيب الاتقاء والارتقاء[6] وأخذ عبيد الله في بناء قصوره بها، إذ يقول التجاني: "فبنى قصره المعروف به الذي كان فيه طبقان الذهب وبنى ابنه أبو القاسم قصره المعروف أيضا وبينهما فسحة"[7] وقصر عبيد الله كان كبير سري المباني بابه غربي وقصر القاسم بإزائه بابه شرقي بينهما رحبة فسيحة[8].

كما امتاز المغرب الأوسط بالعديد من القصور في مختلف مدنه التي شهدت الاستقرار والنشاط الاقتصادي الرفيع مما أدى إلى الأمراء في تشييد القصور، وهذا ما نجده في مدينة تيهرت مثالا حيث عرفت الأمن والأمان والازدهار، فبنيت فيها القصور فاتخذها الأئمة الرستميين بيوتا لسكناهم[1] وخاصة في عهد الإمام الأفلح[2]. إذ ظهر التنافس في بناء القصور وهذا حسب ما ذكره ابن الصغير فابتنى ابان وحمويه القصرين المعروفين لهما بأملاق وابتنى عبد الواحد قصره الذي يعرف به[3].

أما مدينة بجاية تميزت بعدة قصور التي شيدها الأمراء الحماديون حيث ذكر صاحب الاستبصار أن ببجاية: "قصور من بناء ملوك صنهاجة لم يرى الراؤون أحسن منها بناء ولا انزه موضعا"[4] ومن روائع هذه القصور إذ يذكر أيضا صاحب الاستبصار أن: "فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديدة وأبواب محزمة المحنية ومجالس المبنية المقرصنة مبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلها إلى أسفلها قد نقشت أحسن نقش وأنزلت بالذهب واللازورد وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة وصورت فيها صور الحسنة فجاءت من أحسن القصور وأتمها منتزها وجمالا"[5].

أما أشير فقد تأثر أمراءها بنو زيري بالخلفاء الفاطميين حيث طلب من صاحب اشير ببناء المنازل والقصور حيث كان فيها قصر زيري بن مناد[6] وكان بنيانه من الحجر،[7] وكذلك نجد مدينة

المسيلة التي وصل فيها العمران درجة من الرقي حيث اقام بها بنو حمدون قصورا فخمة التي شببها ابن هانئ بالعراق[1].

أما تلمسان التي كان بها قصر عظيم وقصور مشيدة[2]في المدينة، حيث أنشا المرابطين قصر تاقرارت والذي يعرف بالقصر القديم أو البالي وهو قرب المسجد الأعظم[3]، كما شهدت مدينة تلمسان تطورا هائلا في العمران خلال عهد الموحدي حيث أن ولاة الموحدين صرفوا في عمرانها وبناء القصور بها[4].

كما نجد مدينة فاس التي كانت كثيرة الضياع وبها مباني سامية وقصور، حيث اهتم أهلها بمبانيهم وحوائجهم وجميع آلاتهم[5]. أما مدينة مراكش التي عرفت حركة بناء قام بها المرابطين والموحدين فهي مدينة ذات قصور ومباني مُحكمة[6] فاحتوت على قصر مراكش الذي شيّده علي بن يوسف حيث يذكر الإدريسي: "وهي في وطاء من الأرض ليس حولها شيء من الجبال إلاّ جبل صغير يسمى إيجليز ومنه قُطع الحجر الذي بنى منه القصر أمير المسلمين، علي بن يوسف وهو معروف بدار الحجر"[7]، وهذه القصور في الغالب كانت للأمراء والقواد وخدام الدولة[8]. ثم جاء بعد ذلك الموحدين الذين أبدعوا في هذا المجال حيث أصبحت مراكش ببناءاتها وقصورها أشبه ببغداد[9]، وكانت القصور بمراكش كبيرة بتعدد مرافقها وعظمة مبانها حيث كان قصر الخلافة يتكون من عدة دور ويطلق على كل منها اسم خاص به كدار خصصت للوزارة وقاعات اجتماعات وغيرها، وأشهر قصورها قصر أبي

الربيع[1]، حيث شيد الموحدون أيضا قصر بمدينة الرباط وهو قصر عبد المؤمن إضافة إلى قصر أبي عشرة رسالة والذي كان ينزل به عبد المؤمن بن علي خاصة بعد تجديد بنائه[2].

2- المساكن:

تعتبر المساكن من أهم البنايات العمرانية الاجتماعية في المدينة وهي وعاء الحياة والنشاط الاجتماعي فيها، وهذا انعكاس على تخطيطه وإنشاءه[3]، وتعبر المنازل عن حضارة المدينة إذ يقول ابن خلدون: "أن بناء واختطاط المنازل إنما من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف"[4]. ولقد اختلفت هذه المساكن من منطقة إلى أخرى حسب الظروف الطبيعية وكذلك الأحوال المادية لأهلها ولكن نجدها متشابه بصفة عامة[5].

وكانت المنازل تبنى حول المساجد في حلقات متحدة ومتلاصقة وهذا ما نجده في معظم مدن بلاد المغرب كالقيروان وفاس وتيهرت ومراكش وغيرها، حيث كانت منازل تتألف من طابق أرضي أو أكثر كالقيروان التي كانت تتركب من دور سفلى وهي مربعة أو مستطيلة

وحولها غرف أما مساحة الدار فهي متوسطة الحجم[6]. كما نجد مدن التي قامت حول القيروان كالعباسة والرقادة وصبرة فقد عمرها حكام الأغالبة والفاطميين وازدهرت فيها حركة العمران وبنت فيها منازل جميلة وشامخة[7].

وكانت بعض المنازل تبنى بالطوب وبعضها الآخر بالحجر والمساكن التي بنت بالحجر فحجارتها تكون منحوتة ومنظمة كمدينة سوسة كما ذكر البكري: "بنيان سوسة كله بالصخر المحكم"[1]، أما بعض المدن التي أبدعوا في بناء دورها وأبوابها كمدينة تونس التي كانت أغلب منازلها وأبوابها كلها من الرخام البديع وداخلها السخام[2]،ونجد كذلك مدينة مراكش التي كانت ديارها مبنية في البداية من الطوب والطين وبعد ذلك بنيت بالحجر حيث كان علي بن يوسف بن تاشفين يقطع من جبل صغير يسمى إيجليز للبناء[3].

ونجد مختلف هذه المنازل مصطفة وتتكون من عدة حجرات منها المختصة للعائلة إضافة إلى مواضع الحيوانات كالإسطبل إلى جانب وجود بئر لتوفير الماء[4] وهذه من خصوصيات وحاجيات التي يتطلب توفرها في المسكن.

وكانت مساكن المغرب الأوسط لها عاملين يحددان طرازها وأثاثهما ويتمثلان في التراث المتوارث عبر الأجيال والمستوى الحضاري الذي بلغه المسلمون خــــلال القرن الثالث والرابع هجري[5].

ومن المنازل التي كانت أسقفها بالخشب نجد مدينة تيهرت كبيت الإمام يعقوب ابن الأفلح[6] وأيضا مدينة فاس حيث كان أهلها ينوا بيوتهم من خشب شجرة الشعراء[7]، وأيضا كان حال سقوف

مساكن تلمسان التي كانت هي كذلك من الخشب حيث يفضل ابن أبي الزرع استعمال خشب الأرز وهو أطيب خشب الأرض، يعمل العود منه في سقف البيت ألف سنة لا يعفن ولا يسوس[1].

فقلد أكثر موحدون من تشييد البنايات الضخمة والمباني حتي كان لهم ذوق خاص في البناء ويعتبر يعقوب هو خليفة الذي اهتم بالبناء[2]، وكانت تتميز منازلهم بالضخامة ومنها ديار مراكش التي عرفت بسعة عمائرها حتى قيل أنه إذا كان الرجل في صدر الدار ونادى رفيقه وهو في صدرها الآخر بأعلى صوته لا يكاد يسمعه لاتساعها[3].

3- الحمامات:

إن الحمامات من العناصر الهامة في المدينة الإسلامية وذلك باعتبارها إحدى المظاهر الواضحة في المجتمع الإسلامي[4]، فإن إنشاءها حاجة مرتبطة بدعوة الإسلام إلى النظافة والتطهر وكذلك إلى عدم قدرة عامة الناس على تضمين منازلهم حمامات خاصة ومن هنا كثرت الحمامات في المدن الإسلامية[5].

ولقد انتشرت الحمامات بكثرة في بلاد المغرب وكان عدد حمامات مدينة تونس خمسة عشر حماما[6]، وهناك نوعان من الحمامات منها ما هو طبيعي كحمامات التي توجد بقرب من مدينة مليانة مليانة حيث توجد بها عين بها مياه حارة وبني عليها ليستحم فيها[7]، أما الحمامات الأخرى وهي نوع نوع ثاني التي يتم بنائها وهذا النوع موجود بكثرة ومنتشر في بلاد المغرب كمدينة تيهرت والتي كان

فيها اثني عشرة حماما،[1] وكذلك حمام قلعة بني حماد التي كان فيها غرفة مخصصة لتدفئة المياه وبها أساطين وأنابيب[2]. وانتشار الحمامات بكثرة راجع إلى حجم المدينة، فالمدن الكبيرة نجد فيها العديد من الحمامات كالقيروان والمهدية وفاس وتلمسان ومراكش وغيرها، ونجد الحمامات تتكون من قاعات باردة وأخرى حارة وهي أوسع وأكبر وتفصل بينهما أروقة[3] ودائما ما تكون هذه القاعات على شكل شكل مستطيل كحمامات مدينة تيهرت وأغلب أحيان نجد هذه الحمامات في المناطق التي تحتوي على وفرت المياه إذ يقول ابن حوقل: "لسكان تاهرت مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم"[4]. وأيضا ما هوا الحال على مدينة فاس التي اشتهرت بحماماتها إذ يقول حسن الوزان: "إذا أراد أحدهم أن يستحم في إحدى أحد هذه الحمامات دخل من أول باب إلى قاعة باردة فيها صهريج لتبريد الماء إذا كان ساخنا جدا، ومن تم نفذ من باب ثانٍ إلى قاعة ثانية أشد حرارة... ومن هنا يدخل إلى قاعة ثالثة شديدة الحرارة"[5].

كما انتشرت الحمامات في مناطق متفرقة بالمغرب الأقصى فلقد اهتم ولاة الأمر ببنائها وظهر هذا في عهد يوسف بن تاشفين عندما دخل فاس أمر ببناء حمامات فيها[6]، ويذكر البكري: "أن فاس فاس بلغ فيها نحو عشرين حماما"[7].

أما الموحدين هم أيضا حرصوا على بناء الحمامات حيث قام الناصر الموحدي بإنشائها كمدينة مكناس التي كان بها عدد من الحمامات فيقول ابن الغازي: "وكان بهذه المدينة في أيام الموحدين ثلاثة

حمامات، البالي والجديد والصغير وهي باقية بهذا العهد"[1].وكانت فاس عظيمة الحمامات وأكثرها جمالية[2]،وهي أصل التنعيم وقال الشاعر:

إِذَا زَفِرَ الحَمَّامُ وَاشْتَّدَ فَيْضَهُ   وَهَــــاجَتْ لَوَاعِيجُ بِهِ وَحَمِيمُ
رَأَيْتَ نَعِيمًا فِي الحَمِيمِ وَرَاحَةً   وَذَاكَ غَرِيبٌ فِي الجَحِيمِ النَّعِيمُ[3]

إذ يقول القلقشندي: "حماماتها حمق ولم أر قط حمامات في داخلها عين تنبع إلاّ فاس"[4].

وكان نظام بناء الحمامات يحتوي على قاعة رئيسة خاصة بنزع الملابس وبها توجد أعمدة وهناك قاعتان أخريان إحداهما بالماء متوسط الحرارة، والأخرى من ماء شديد الحرارة، أما بالنسبة للسقوف كانت على هيئة قبو نصف دائري وفيها فتحات صغيرة يدخل منها الضوء[5].

4- الأسواق والفنادق:

ولقد اعتاد المسلمون أن يقيموا الأسواق في المدن التجارية الهامة إذ نجدها بكثرة وسط التجمعات السكانية ويخصص لها مكان، وتعتبر الأسواق هي مراكز النشاط التجاري، فإنشائها في المدن الإسلامية هو محور النهضة العمرانية لأن المدن تتفاضل بالأسواق وكثرة الأرزاق ونقاق الأسواق من تفاضل عمرانها، ومن هنا فإن ازدهار الاقتصادي ينعكس على ازدهار الأسواق وعمارتها[6].

وقد كانت معظم الأسواق مبلطة أو يبنى على جانبيها أفريزان يمشي عليه الناس في زمن الشتاء إذا لم يكن السوق مبلطا ويصف المقريزي هذه الأسواق بأنها مغطاة بالسقائف وبعضها يضاء ليلا ونهارا بالقناديل لأن الضوء لا يصل إلى داخلها[1].

وكانت هذه الأسواق كثيرا ما نجدها تحيط بالمساجد كأسواق مدينة القيروان حيث يقول المقدسي: "وبها جامع يسمى السماط وسط الأسواق في سرة البلد"[2]، وكذلك توجد بها أسواق متخصصة وكان ذلك أيّام حاتم بن يزيد وكانت بها حوانيت الرفائين والكفيين وتجتمع في مكان واحد حيث عرفت بالحوانيت الجدد[3]، وكانت أسواق المدن في مبدأ أمرها عبارة عن أسواق أسبوعية تقام في أيام معينة في الأسبوع فمثلا سوق القيروان كان يعقد في يوم الأحد والخميس[4]، وكذلك الحال أسواق أسواق مدينة تيهرت كانت هي أيضا توجد حول المساجد وهذا ما نلاحظه في معظم مدن الإسلامية في بلاد المغرب وأحسن مثلا على ذلك تلمسان وفاس وتونس ومراكش. ولقد كانت أسواق تيهرت إلى درجة أطلق أسماء بعضها على أشخاص مثل سوق بن جَبَلَة وسوق إبراهيم وسوق بن وردة[5]، أما أسواق بجاية منها السويقة والتي تعني السوق الصغيرة وهي بناحية باب تاطنت التي مر بها الخليفة الموحدي عبد المؤمن وأمر بشراء جميع الدكاكين التي بالسويقة وأوقفها عليهم[6]، وكانت أسواق مدينة

بجاية جميلة ومنسقة أحسن تنسيق[1] كسوق الصوف وسوق القيصرية وسوق باب البحر وسوق يقع بالقرب من حومة المذبح، وتنوعت أسواق بجاية ما جعلها ملتقى تجاريا هاما[2].

وانتظمت الأسواق في المغرب الأقصى حيث كانت كل صناعة بناحية معينة في السوق مثل سوق النحاسين وسوق الفاكهة وسوق الزياتين وغير ذلك من الأسواق[3]، ونذكر أسواق فاس التي كانت تحيط بجامع القرويين منها سوق المدول كانت محلاتها متلاصقة بسوق الجامع وبعضها الآخر يقابل هذا السوق وفي المقابل الباب الرئيسي للجامع سوق الغرب وسوق الفاكهة ويليه سوق الشماعين والزهور والألبان، وإلى الشمال سوق الشراطين الذين يبيعون الحبال الغليظة والرفيعة[4]، وكانت مدينة فاس وغيرها من المدن المغربية لاتزال تزخر بأسواق الزياتين حيث يباع الزيت والزبد الطازج والزيتون والليمون وأسواق الدجاج والدلاء الجلدية وسروج الخيل والمنسوجات الحريرية وأدوات الأغطية الصوفية والثياب وغيرها[5].

كما أن هذه الأسواق كانت مسقفة بمحروسات العنب والآجر وقد أشار إلى هذا بن عذارى حيث تكلم عن حريق الذي أصاب مدينة مراكش سنة 607 هـ/ 1210 م[6]، وكانت لهذه الأسواق الأسواق أيضا أيام معلومة يتجهون إليها الناس فكان بعضها يقام يوم الجمعة في كل أسبوع كسوق وادي درعة[7] أما سوق أغمات وريكة يقوم بيوم الأحد حيث كانت ترتفع فيها حركة البيع والشراء

ويذبح فيها أكثر من مائة ثور وألف شاه وينفذ في ذلك اليوم جميع ذلك[1]، كما اشتهرت مدينة سبتة بكثرة أسواقها والتي كانت حوالي مائة وأربعة وسبعون سوقا[2].

وإضافة إلى الأسواق كان يوجد بجانبها الفنادق والتي تعني مكان تجار الأجانب ودوابهم والتي كانت تتكون من غرف متعددة وصحن مكشوف ومخازن[3] وخصصت هذه الفنادق للتجار الغرباء وكانت أشبه الأسواق الكبيرة وكانوا يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها ويغلقون غرفهم بأقفال رومية ويطلق عليها بالفنادق أو المخازن[4]، وقد عرفت الفنادق التخصص كفندق البياض وفندق الكتان وفندق الملح وغيرها[5]فيذكر بن حوقل: "وفنادق يسكنها التجار، فيقصد كل فندق بما بما يعلم أنه يغلب على أهله من أنواع التجارة"[6].

ولقد ارتكزت هذه الفنادق في المدن التي شهدت تجارة مزدهرة ورخاء اقتصادي ونجد من بين هذه المدن مدينة تونس التي كانت رفيعة وكثيرة الفنادق وعجيبة المتاجر[7] وأيضا سوسة التي هي مدينة مدينة أزلية وبها سوقا وفنادق[8]أما مدن المغرب الأوسط شهدت فيها تجارة مزدهرة دلت عليها القوافل القوافل العديدة التي صارة من مختلف الجهات فكثرة فيها الفنادق بازدياد الحركة والنشاط التجاري حيث كثر عدد التجار الأجانب الواردين عليها وانتشرت هذه الفنادق في مدينة الجزائر[9] والتي كانت

تجارتها مربحة وأسواقها قائمة[1]، إضافة إلى فنادق مدينة تيهرت التي أتتها الوفود من مختلف الأمصار والآفاق وأنواع التجارة[2] وتلمسان التي كان فيها فنادق على النمط الإفريقي منها اثنان لمقام التجار جنوة والبندقية[3].

ولقد اهتم ولاة الأمر في المغرب الأقصى ببناء العديد من الفنادق بمختلف المدن حيث قام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ببناء فنادق مدينة فاس سنة 462 هـ / 1170 م وكذلك كان هناك العديد منها في مدينة مراكش الذي أمر خليفة الموحدي بإنشاء الكثير من الأسواق والفنادق التي جاء إليها تجار من كل ناحية[4] وكما أنشأ يوسف بن عبد المؤمن فنادق في مدينة الرباط[5] أما في في عهد ناصر بلغ عدد كبير من الفنادق تقريبا سبعة وستين وأربعمائة فندقا[6]، وكانت تحتوي هذه الفاندق على أماكن مخصصة للصناع وأصحاب الحرف وتتكون من دور أرضي يضم ورش ومحلات وطابقين علويين عبارة عن شقق منفصلة مكونة من حجرة أو حجرتين[7]، وكما كثرت الفنادق في مدينة سبتة إذ يذكر السبتي: "وعدد الفنادق حسبما استفاضة على ألسنة أهل البلد ثلاثة مائة وستون فندقا"[8].